علم النفس والادب

بقلم محمود السمرة
ليسانسيه في الآداب

✳

ان موضوع* علم النفس هو دراسة النفس الانسانية ولذلك فان باستطاعتنا ان نستغل هذا العلم في دراسة الفن ، لأن النفس هي منبع جميع الفنون وفي هذه الحالة فان على علم النفس ان يفسر لنا كيف تم خلق العمل الفني اولاً ، ، وان يكشف لنا عن العوامل التي تجعل من الانسان فناناً خالقاً ثانياً . وبهذا يواجه العالم النفسي مشكلتين متميزتين عليه ان يتناولهما من طريقين مختلفين : ففي العمل الفني يواجه عالم النفس انتاجاً فيه كثير من اوجه النشاط النفسي المعقدة ، الا انه انتاج ارادي قد تم بطريق الوعي ؛ وفي حالة الفنان يبحث في الجهاز النفسي نفسه ، فهو في الحالة الأولى يحلل لنا نفسانياً العمل الفني ، اما في الحالة الثانية فان عليه ان يحلل الانسان الحي الخالق كشخصية مستقلة ، ومع ان هاتين الحالتين متداخلتان ومترابطتان الا انهما لا تعطيان نفس التفسيرات والنتائج . قد نستنتج بعض الاشياء عن الفنان من العمل الفني او بالعكس ، ولكنها ليست استنتاجات شاملة ، وهي في احسن حالاتها ليست الا تخمينات محتملة فقط : فعلاقة (جيته) بأمه تلقي ضوءاً على سبب صياح (فاوست) : « الأم ، الأم ، يا لها من كلمة غريبة ! » ولكنها لا تستطيع ان تفسر لنا كيف ان علاقته بأمه قد استطاعت ان تنتج دراما (فاوست) مهما لاحظنا من شبه بين (جيته) وبطل دراماته . ولن نستفيد اكثر لو سلكنا السبيل الآخر بأن نبدأ من العمل الفني لنستدل منه على الفنان ؛ فمثلاً ليس هناك في عمل (فاجنر) الفني ما يمكننا من ان نستنتج ان (فاجنر) كان يميل احياناً الى لبس ملابس النساء .

إن ما وصل اليه علم النفس من رقي حتى الآن لايزال عاجزاً عن ان يعطينا احكاماً دقيقة ثابتة فيما يتعلق بالعمل الفني . ولكن علم النفس يسعى دائماً للكشف عن خفايا نفس الفنان ، وانكار هذا على علم النفس معناه انكار هذا العلم برمته . ان كل ما في الامر ان علم النفس لا يستطيع ان يعطينا حكماً علمياً رياضياً في هذا الموضوع .

وهناك فرق جوهري بين طريقة تناول الناقد الفني للعمل الفني وطريقة عالم النفس ، فما يكون هاماً جداً لاحدهما قد يراه الآخر غير ذي جدوى له ، ومثال ذلك ان القصة النفسية Psychological Nove لا يهتم بها عالم النفس لأن مثل هذه القصص تفسر نفسها بنفسها ، فالكاتب يكيف الحوادث حسب نظريات في علم النفس ، فكأنها قصص تكتب تطبيقاً على نظريات كقصص الكاتب الانجليزي (ألدوس هكسلي) وفي مثل هذه القصص يفتش غير علماء النفس عن علم النفس ، وكل ما يستطيع عالم النفس عمله في هذه الحالة هو اما ان ينتقدها او ان يفسرها . والقصص التي لا يحلل الكاتب فيها نفسيات شخصياتها او بواعث احداثها هي التي تغري عالم النفس بتناولها لتحليلها نفسياً ، لانه هو وحده الذي يستطيع هذا .

وليس الامر مقصوراً على القصة ، بل ينطبق على كل عمل ادبي ، ونشاهد النوعين المذكورين في الشعر في جزءي تمثيلية (فاوست) : فمأساة حب (كريتشن) تفسر نفسها بنفسها ، ولا يستطيع عالم النفس ان يضيف اليها جديداً ، لأن الشاعر لم يترك شيئاً الا وعبر عنه في احسن صورة ، اما الجزء الثاني من (فاوست) ففي حاجة الى تفسير وتوضيح ، فخصب خيال الشاعر ، وتكدس الاحداث ، تجعلان القارىء يشعر انه في حاجة الى شروح تفسر له ما غاب عن فهمه وادراكه ، فهذان الجزءان يبينان لنا بجلاء الفرق بين النوعين المذكورين من الخلق الفني : فتجربة الشاعر في الجزء الاول تجربة عادية من عالم الانسان الواعي ، اما تجربته في الجزء الثاني فغريبة ، متعددة الجوانب ، مضحكة ، شاذة ، لا يحدها زمان ، تمزق ما

* المصدر الاول لهذا البحث هو كتاب C. G. Jung : « Modern Man In Search Of A Soul — Psychology And Literature ».

تعارفنا عليه من قيم ومفاهيم. وليس هناك من سبب يدعونا لأن نفترض ان (جيته) كان انساناً طبيعياً عندما كتب الجزء الاول ، وانه كان في حالة مرضية عصبية عندما كتب الجزء الثاني . والواقع اننا لا نجد بدأ من ان نفترض بأن الجزء الثاني يعبر عن تجربة اكثر عمقاً من تجربة الانسان العادي ، وقد سمى العالم النفسي المشهور (يونج) النوع الاول (نفسياً) والثاني (تخيلياً) .

والادب النفسي -- في تعريفه -- يستقي مادته من عالم الانسان الواعي : كتجاربه في الحياة والصدمات العاطفية ، ومآسي البشر بصورة عامة -- وهذه تكوّن ما يعرف بعالم الانسان الواعي ، بل حياته الشعورية بوجه خاص ، فهذه التجارب يستوعبها الفنان ثم يسمو بها من مستواها العادي الى ان تصبح تجربة الفنان نفسه ثم يعبر عنها بطريقة تبعث الجلال والانفعال في نفس القارىء . ولا يترك في هذه الحالة لعالم النفس سوى ان يفيض في شرح الاسباب : كأن يفسر لنا لماذا وقع (فاوست) في حب كريتشن او لماذا قتلت (كريتشن) طفلها ، والقسم الاكبر من الانتاج الادبي من هذا النوع ، اي من النوع النفسي الذي يستقي مادته من تجارب الانسانية في عالمها الواعي . وقد سمي هذا النوع من الادب نفسياً لان كل ما فيه من تجارب وحتى من تعابير فنية هي من عالم المعقول الذي لا غرابة فيه .

وهكذا نرى ان الادب النفسي لا يستطيع ان يمزق الحجب التي تستر اسرار الكون ، ولا يتجاوز حدود الاشياء المعقولة ولكن تجارب الادب التخيلي تمزق الحجب عن وجه هذا العالم فنرى ما استتر علينا وخفي ، ومثل هذا النوع نراه في (راعي هيرماس) لدانتي ، والجزء الثاني من (فاوست) ، وشعر (وليم بليك) . ونحن عند بحثنا في الادب النفسي لا نتساءل عن الموضوع والاحداث ومانعنيه ، ولكن هذا التساؤل يفرض نفسه علينا في الادب التخيلي ، فنحن اذ نندهش به ونفزع . ويختلط الامر علينا ، نلتفت الى الشروح والتعليقات . ولا يذكرنا هذا النوع من الادب بشيء مما يجري في حياتنا اليومية بل بالاحلام ومخاوفها ، وما استتر في ثنايا الفكر من اشياء نحس بها ولكننا نكبتها . ومثل هذا النوع من الادب ينكره القارىء العادي ، وحتى الناقد الادبي يقف امامه مكتوف اليدين محرجاً وهنا يبدأ عمل عالم النفس الادبي .

وقد حاول (دانتي) و (فاجنر) ان يسهلا السبيل الى فهم هذا الفن التخيلي ، فنرى (دانتي) يقدم لكتابه بحقائق تاريخية تفسر تجربته المتخيلة ، ونرى (فاجنر) يذكر حقائق ميثولوجية فنرى في هاتين الحالتين التاريخ والميثولوجيا مادتين استقى منهما هذان الفنانان موضوعيهما . ولكن الحقيقة ان الدافع للخلق الفني عندهما لا يكمن في التاريخ والميثولوجيا بل في تجاربهما الشخصية .

ان غموض مصادر الادب التخيلي تجعلنا ميالين الى ان نشك في ان هذا الغموض قد يكون مقصوداً ؛ ولكننا ميالون ايضاً الى ان نفترض -- و (فرويد) يشجعنا على هذا الفرض -- ان تجربة انسانية من نوع سام تختفي وراء هذا الابهام . ولذا فان علماء النفس الادبي يحاولون دوماً تفسير هذا الغموض ، وفهم السبب الذي حدا بالشاعر الى اخفاء تجربته عنا .

وعالم النفس الذي يرى رأي (فرويد) يميل الى ان ينظر الى مثل هذا الانتاج نظرته الى مشكلة مرضية تتطلب حلاً . ولأن هذه التجربة تخالف واقع الانسان في حياته العادية ، لذلك فان عالم النفس يحاول ان يعتبر هذه الاخيلة الغريبة الشاذة رموزاً يحاول الكاتب ان يخفي بها حقيقة التجربة التي مر بها ؛ فهو بهذا يحاول ان يستبدل الواقع بالخيال .

اما (يونج) فيقول اننا اذا قلنا ان الشيء المتخيل ناتج عن تجربة شخصية ، فانه ينتج عن هذا ان الخيال تابع ، او ليس الا رمزاً للواقع ، وبهذا نعري الخيال من كل صفة اصيلة فهو رمز لا غير ، وهذا غير صحيح .

ونحن الآن نعتبر الفن تعبيراً جميلاً صادقاً عن الانفعال الشخصي ؛ وهذا ينقلنا من دراسة الناحية النفسية في العمل الفني الى دراسة نفسية المتفنن نفسه . وفي هذه الحالة علينا ان نهتم اهتماماً خاصاً بالتجربة الاصلية التي تختفي وراء العمل الفني ، وقد يظهر للقارىء العادي ان هذه التجربة المتخيلة لا تمت بصلة الى عالم الانسان ولهذا يجد صعوبة في الاقتناع بانها حقيقية ، وقد يخطر بباله انها نوع من الشعوذة . ولكن الحقيقة ان هذه التجربة المتخيلة ليست في شيء من هذا ، هي من نتاج الخيال الخصب الذي كان دوماً مبدعاً للفنون .

لقد اصبح موضوع « علم النفس الادبي » من اهم موضوعات النقد في المكتبة الغربية ؛ اما عندنا فلا تزال مفاهيمنا دون هذا المستوى بكثير ؛ ولكننا لا نستطيع ان ننكر المحاولات الجدية التي بدأت تظهر في اوساطنا الادبية لادخال هذه المفاهيم الفنية الراقية في دراساتنا الادبية ؛ هذه المفاهيم التي ستغير بعد قليل اتجاه تفكيرنا وتقديرنا للقيم الفنية عامة ، والادبية بصورة خاصة .

الكويت — محمود السمرة

اللوحة

لندى أديب　　　　ترجمها عن الفرنسية م. ع.

ندى أديب زنبقة تفتحت على شرفة البير ، وشربت من كف والدها العطر والضوء... وبجانحها مستها ربة الشعر. [م. ع.]

*

لوحة قديمة
اين ازاحوا الستر عنها ؟ لست ادري
نسيت عليها السنين ظل الشحوب
لوحة خرساء تتحدث عن كل شيء

عجوز ترتدي الابيض
أراها
جالسة قرب نار الموقد
تموت تغزل
عيناها نصف مغلقتين
ويدها المعروقة لا تزال تمسك بالخيط

الحجرة خالية معتمة
وكل شيء يموت هنا في الظل
حتى نار الموقدة

والموت ... هنا
يترقب في الظلام

واخيراً تعب القلب الهرم
وكفّ عن الصراع

وبقيت اللوحة القديمة ...

ندى أديب

صور

الى عبد الوهاب البياتي الرائد الجديد

✳

الليل والمطر الشديد
والكلب يسمع من بعيد
والريح تعصف في جنون
والكادحون
عادوا مع الشفق الحزين
صفر الملامح متعبين
يتململون
وجهودهم في العاملين
ضاعت كعمرهم الحزين
عبر السنين ...

الليل والمطر الشديد
يمضي ويعقبه الصباح
وتملُّ « كلبتنا » النباح
ويروح أشباه العبيد
للأرض تحرث من جديد
وتساق قطعان الرعاه
ترعى الحشائش في الفلاه
وهناك في « بلد الكبار »
حيث الحقارة والصغار
يحيا أناس خاملون
بل مترفون
ولليلهم دوماً رنين
إذ يسهرون !

كفرعوان ـ الاردن

○

الليل والمطر الشديد
والكلب يسمع من بعيد
والريح تعصف في جنون
«والجحش» ينهق في السكون
غزلاً « لجحشته » الحنون
« ام البنين »
« والديك » يعلن للنيام
فجراً جديد
للكادحين

الليل والمطر الشديد
والكلب يسمع من بعيد
والكادحون المتعبون
يتململون
وكأنهم فوق الجليد
إذ لا لحاف أو فراش
إلا الحصير
يأوي اليه الكادحون
وكأنهم فوق الحرير
في الكوخ والبيت الصغير
بيت الجياع
في الليل والمطر الشديد...

○

ملحم وهبي التل